النظام الأخلاقي وحماية البيئة

<"xml encoding="UTF-8?>

جلّ المخاطر التي تتعرض لها البيئة هي نتاج طبيعي لضعف الوازع الأخلاقي لدى الإنسان، لأنّ الأخلاق ليست هي الحصن المنيع التي تمنح الإنسان معنى إنسانيته وتؤمن له الاستقرار الداخلي وتنظم علاقاته بالآخرين فحسب، وإنما هي أيضاً عنصر الحماية الرئيسي للبيئة ومواردها ومكوناتها، وكلما سما الإنسان أخلاقياً وروحياً كان ذلك أدعى للاستقرار البيئي فضلاً عن الاستقرار الاجتماعي، وكلما تداعت أو تصدّعت المنظومة الأخلاقية وتردّى الإنسان روحياً كان ذلك مؤشراً على ازدياد المخاطر البيئية، فضلاً عن الأزمات الاجتماعية، ولذا فإن إصلاح البيئة يبدأ من إصلاح الإنسان، وإصلاح الإنسان لن يكون ميسوراً إلا بإعادة الإعتبار إلى القيم الأخلاقية السامية، وذلك لأنه عندما تسود مبادئ النفعية والأنانية ويغدو الطمع والجشع والاحتكار... دليل النجاح و"الشطارة"، وفي المقابل تصبح قيم الرفق والإحسان والاقتصاد، دليل السذاجة والفشل عندما يسود هذا "المنطق" بموازينه المغلوطة ومفاهيمه المعكوسة فعلى الإنسانية السلام، وعلى البيئة ألف سلام!

في ضوء ما تقدم لا يعود مستغرباً هذا الاهتمام الديني بموضوع النظام الأخلاقي، لدرجة أن رسول الله محمد صلى الله عليه وآله لخّص هدف بعثته بأنه العمل علىٍ تشييد صرح الأخلاق وإكمال مكارمه، قال فيما روي عنه: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ولا يخفى ما تختزنه كلمة "أتمم" من اعترافٍ بجهود السابقين من الأنبياء والحكماء على صعيد البناء الأخلاقي. والحقيقة أن الإرشادات والوصايا والتعاليم الأخلاقية التي جاءت بها الرسالة الإسلامية تطبيقاً وتأكيداً لمقولة رسول الله صلى الله عليه وآله الآنفة حول مكارم الأخلاق تحتلّ حيزاً كبيراً من التراث الإسلامي الخالد الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته علهيم السلام، وما علينا إلا أن نعمل على نشر هذه التعاليم والتبشير بها سواء في وسط المسلمين أو غيرهم. وفيما يتصل بموضوعنا فإن الإرشادات التي تساهم في حماية البيئة وفيرة ومتنوعة، وبعضها يعتبر إرشادات عامة تصلح للتوجيه في حماية البيئة بكافة عناصرها، وبعضها تمثل إرشادات خاصة تنفع للتوجيه في مجالات محددة، ونعرض فيما يلي إلى بعض المفاهيم الأخلاقية العامة، على أن نعرض للوصايا والإرشادات الخاصة في سياقها. ١ـ الزهد: لا ريب أن لجشع الإنسان وطمعه الذي لا حدّ له تأثيراً سلبياً على البيئة، إمّا بشكل مباشر، لأن زيادة استهلاك الإنسان للمنتجات على اختلاف أنواعها الغذائية أو الصناعية أو غيرها تستتبع زيادة الإنتاج مع ما يستلزمه ذلك من استنزاف الموارد الطبيعية، وإما بشكل غير مباشر لأن الطمع والجشع يجرّ في كثير من الحالات إلى التقاتل ونشوب الحروب والصراعات وهي بطبيعة الحال تدمر الكثير من مظاهر البيئة وعناصرها، ومن هنا فإنّ مفهوم الزهد يمكنه أن يلعب دوراً كبيراً في حماية البيئة، لإنه يروّض الإنسان على القناعة، ويحدّ من نزعة الجشع والطمع لديه. وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (الطمع أول الشر). ٢ـ الاقتصاد: من المفاهيم والتعاليم الإسلامية التي لها دور هام في التخفيف من استنزاف مصادر الطبيعة وطاقاتها مفهوم الاقتصاد في الصرف والإنفاق، ومما جاء في الحث على الاقتصاد: ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله: (إياكم والسرف في المال والنفقة، وعليكم بالاقتصاد، فما افتقر قوم قط اقتصدو). ٣ـ الرفق: إن مفهوم الرفق من المفاهيم الإسلامية التي تساهم في حماية البيئة، لأنه لا ينحصر بالرفق بالإنسان، بل يتسع ليشمل الرفق بالحيوان والطبيعة أيضاً، ففي الحديث عن جعفر الصادق عليه

السلام: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ الله يحب الرفق ويعين عليه، فإذا ركبتم الدواب العجف، فانزلوها منازلها فإن كانت الأرض مجدبة فانجوا عنها وإن كانت مخصبة فانزلوها منازلها).